مهدي عيسى الصقر

عندما تبدو كل الرياح ساكنة

(حكاية عن الاطفال ...)

الهواء ساكن .. يبدو ساكنا . وسرب من الحمام الابيض والرمادي يحلق في السماء الزرقاء الصافية ، يرتفع وينخفض ، يحوم حينا حول منارة مسجد قريب او ينساب قريبا من رؤوس النخيل والاشجار وانتينات التلفزيون ، والثياب الملونة المغسولة المنشورة على الحبال فوق اسطح المنازل . ومن فتحة باب الدرج المعتم فوق احد السطوح يخرج صبي في الثانية عشرة او اكثر قليلا يحمل بيده طائرة ورقية بيضاء كبيرة يتبعها ذنبها الطويل ، المصنوع من سلسلة من الحلقات المختلفة الالوان ، مثل افعى كبيرة تمرق بخفة من ظلام الدرج الى السطح المشمس . يتطلع الصبي حوله لحظات . لا احد . النخلة الوحيدة المنتصبة في فناء الدار تنشر سعفها الكثيف الداكن الخضرة مثل خيمة كبيرة تلقي جانبا من ظلالها السوداء الباردة فوق رأس الصبي الواقف الآن على السطح . يضع الصبي بكرة الخيط على الارض يرفع ذراعه بالطائرة ، يرخي لها الخيط ثم يشده وهو يتراجع الى الوراء . تختلج الطائرة في الهواء الساكن لحظات قصيرة ثم تتطوح وتهوي الى السطح مثل حجر ، ذنبها الطويل يرقد الى جانبها كومة من الالوان الزرقاءوالحمراء والخضراء فوق البلاط الاصفر الشاحب . ينحني الصبي عليها ، يرفعها عن الارض ، يعدل الخيط ويعاود المحاولة . ترتفع الطائرة قليلا ، يترك لها الخيط ثم يبدأ بشده في حركات صغيرة متتالية متراجعا بخطى سريعة والطائرة ترتعش في الهواء فوق رأسه . يصطدم بالحاجز الحجري الذي يفصله عن السطح المجاور ، يتوقف . تترنح الطائرة ثم تنقلب على ظهرها مثل سمكة كبيرة مسمومة وتهبط الى الارض من جديد . يحملها الصبي ويمضي بها الى بداية السطح متحاشيا الاصطدام بسعف النخلة الهابط من فوق الجدار .

على السطح المجاور تصعد صبية في العاشرة ترتدي ثوبا احمر وتحمل بين يديها سلة صغيرة زرقاء من (البلاستيك) تمتلىء بقطع ثياب مغسولة . تقترب من حبل الغسيل الممتد في الشمس مثل خط ابيض ، تضع السلة على الارض ، تتناول قطعة ملفوفة ، تنشرها ، ثم تقف على اطراف اصابعها وترفع ذراعيها بالثوب وترمي به على الحبل . يتهدل الحبل تحت ثقل القماش المبلل ويصبح بعد ذلك من السهل عليها نشر القطع الاخرى دون الحاجة الى الوقوف على اطراف اصابعها . عندما تهم بنشر القطعة الثانية من الثياب تلمح الصبي المنشغل بطائرته الورقية على السطح المجاور . تترك سلتها الصغيرة مهملة اسفل حبل الغسيل وتتجه صوب الحاجز الذي يفصل بين السطحين . الصبي يقف بعيدا عنها وظهره اليها وهي لا ترى وجهه ، ولكنها تستطيع من مكانها ان ترى – من بين ثنايا السعف ومن خلال الشقوق بين الخوص الاخضر – شعر راسه الاسود المصفوف بعناية واجزاء من بيجامته البيضاء المخططة بالازرق وطرفا من طائرته الورقية البيضاء وذيلها الملون الطويل . وتستطيع ان تلمح ايضا – بين حين واخر – وميض ساعته اليدوية الفضية اللون كلما تكسرت عليها اشعة الشمس وهو يطوح بيده الممسكة بخيط الطائرة في محاولاته المتكررة والعنيدة لجعل الطائرة تطير . تتشبث الصغيرة بحافة الجدار ، تجعل ذقنها يستقر على ظاهر كفيها وتتابع حركاته باهتمام .

يضع الصبي اصبعه في فمه ثم يخرجه ويرفعه في الهواء محاولا معرفة اتجاه الريح . يشعر ببرودة خفيفة تلف اصبعه المبلل من جميع الجهات . يقف حائرا بعض الوقت ، ثم يرخي الخيط قليلا لطائرته ويسحبها بقوة وهو يمشي الى الوراء . يرتطم ظهره برؤوس السعف ، يتنحى عنها فيتعثر بالبكرة التي تروح تتدحرج فوق السطح حتى ترتطم بالجدار مخلفة وراءها ، على البلاط الاصفر ، خيوطا متشابكة دقيقة بيضاء يعلق بعضها بقدميه . يسمع ضحكة ناعمة متصلة وراء ظهره . يلتفت يرى وجه الصغيرة المدور المحمر من الشمس ومن الضحك وهي لا تزال تكركر وراسها يهتز فوق الحاجز . يرمقها

بغضب فتكف عن الكركرة لكن عينيها تظلان تضحكان. يشيح بوجهه عنها . يضع الطائرة على الارض ، يرفع البكرة ويبدأ بلف الخيط . يصل الى الاجزاء المتشابكة . يمسك طرف الخيط بين اسنانه ويبدأ بحل العقد الكثيرة الواحدة بعد الاخرى في صبر . يسمع صوتها وراء ظهره يكايده . لن تطير طائرتك ! مهما تفعل لن تطير طائرتك ! لا يرد الصبي عليها . الخيط بين اسنانه يمنعه من فتح فمه وهو ايضا ليست به رغبة للكلام في هذه اللحظة . يجب ان يحل العقد اللعينة اولا . تصيح الصغيرة وراءه مرة اخرى . لن تطير طائرتك لانه لا يوجد هواء ! يظل الصبي صامتا . يحل بقية العقد بهدوء وعندما يفرغ منها كلها يفلت طرف الخيط من بين اسنانه ويلتفت اليها . كيف تتنفسين اذا كان لا يوجد هواء ؟! تضطرب عينا الصغيرة لحظات وهي تفكر في كلماته وتحاول الرد عليها ولكنها لا تجد جوابا ملائما . ترقب ظهره المبتعد عنها لحظات ثم تعود الى سلتها الصغيرة اسفل حبل الغسيل وتواصل نشر قطع الثياب على الحبل وهي ترنو اليه من بعيد بين حين وآخر . عندما تنتهي من عملها تحمل سلتها الفارغة وقبل ان تهبط الدرج تتوجه صوب الحاجز . الصبي يقف وسط السطح الآن ووجهه اليها هذه المرة والطائرة ترتعش على بعد قدمين من صدره وذيلها الطويل المتعدد الالوان يتلوى تحتها وجزء منه بطول قدم تقريبا يختلج على الارض. تصيح الصغيرة من مكانها : تعرف لماذا لا تطير طائرتك ؟ تنتظر ان يسألها : لماذا ؟ لكنه لا يسألها . ماذا تعرف طفلة صغيرة مثلها عن الطائرات ؟! تصيح هي مرة اخرى. لا تطير لان ذيلها طويل ! يلقي الصبي نظرة سريعة على الذنب المتأرجح . ربما هذا هو السبب .. ربما ذيلها الطويل هو الذي يمنعها من الصعود . لكنه مع ذلك لا يفعل شيئا للذنب في حضور الصغيرة ، ويواصل محاولاته اليائسة لجعل الطائرة ترتفع في الهواء . تسمع الصغيرة صوتا يناديها من داخل البيت . تدير ظهرها للصبي ، تعبر السطح المشمس وتختفي سلتها الزرقاء اولا ثم يختفي ثوبها الاحمر وشعرها الاسود في فوهة الدرج المعتمة . عندما يطمئن الصبي الى ذهاب الصغيرة يضع طائرته على الارض ، ينحني عليها ، يقطع جزءا كبيرا من ذيلها الطويل الملون ، يطوي الجزء المقطوع ويحشره في جيب بيجامته بسرعة . يرفع الطائرة عن الارض ويعتدل. يرفع ذراعه عاليا يفلتها من يده ثم يشد الخيط دافعا جسده الى الخلف . تترنح الطائرة فوق راسه بذنبها الملون المبتور لكنها ترفض التحليق . يتركها تحط على السطح وينظر اليها في غيظ ، ثم يدير ظهره اليها . يتجه صوب سرير حديدي عار ، في الركن القصي من السطح . يجلس على طرف السرير ويمسح بردن قميصه العرق الناضح من وجهه ورقبته . يحدق بامعان باطراف السعف الهابط من رأس النخلة . السعف ساكن .. يبدو ساكنا تماما ولا يقدر الصبي أن يلمح اية حركة توحي اليه باتجاه الريح . يتطلع ساهما الى طائرته الراقدة على الارض مثل حيوان غريب ميت . ينهض ويتجه اليها. قبل ان ينحني عليها يتوقف . يلمح — في الافق المضبب البعيد — شعلة لهب صفراء في رأس مدخنة عالية لمصفى النفط على الضفة الاخرى من النهر . الشعلة القصيرة تصعد الى الاعلى بشكل عمودي وكانها جزء متمم للمدخنة . يحدق فيها طويلا ويلحظ اخيرا في رأس الشعلة ، حيث يتمزق اللهب قطعا صغيرة متطايرة ويتبدد في الهواء ، اختلاجة خفيفة باتجاه الجنوب . ينحني على طائرته بعزم يرفعها عن الارض ويعطي وجهه للجنوب . يطلقها في الهواء ثم يشد الخيط ، تتطوح قليلا ، تسكن لحظة ثم تبدأ بالصعود فجأة .. هكذا .. وكأنها تعبت اخيرا من معاندة الصبي . يشرق وجهه ، يرخي لها الخيط شيئا فشيئا ببطء ولكن دون توقف . يلتفت الى السطح المجاور . لا يرى احدا . بعض الثياب الملونة المختلفة الحجوم تنتشر في الشمس فوق حبل الغسيل المتهدل . يتراجع ساحبا الخيط معه بحذر حتى يصل الجدار الفاصل بين السطحين . يتوقف عنده .

تخرج الصغيرة من عتمة السلم تحمل سلتها الزرقاء بين ذراعيها . ترنو الى سطح الجيران . ترى رأس الصبي الذي يبدو ساكنا الان وراء الحاجز . في البدء لا تعرف سببا لوقفته تلك ثم ترى احدى يديه مرفوعة قليلا وثابتة امام صدره وتلمح الخيط الابيض المشدود الذي يشق الفضاء الازرق بشكل يكاد يكون عاموديا ، فترفع رأسها بسرعة مع امتداد الخيط وتشاهد الطائرة وسط السماء الصافية الرحبة ، نقطة صغيرة بيضاء بذنب يبدو الآن داكنا وقصيرا . ترمي سلتها المليئة بالغسيل عند باب السلم وتهرع اليه .

دعني امسكها ! دعني امسكها بيدي !

يلتفت اليها الصبي منتصرا .

قلت انها لن تطير !

دعني امسكها قليلا !

لكنك قلت انها لن تطير !

امسكها قليلا .. قليلا فقط !

يمد الصبي يده اليها بالخيط من وراء الحاجز محتفظا بالبكرة في يده الاخرى . تطبق الصغيرة اصابعها على الخيط بحذر وقوة . تختلج الطائرة في السماء لحظة ثم تسكن من جديد . يشع وجه الصغيرة فرحا وهي تمتلك الطائرة المحلقة بين يدها وتشعر بجذب الخيط المتوتر تحت لحم اصابعها . وتبقى سلتها الصغيرة الزرقاء المليئة بالغسيل مهملة في مكانها عند رأس الدرج . يمسح الصبي العرق من على وجهه ورقبته . يستند بكتفه الى الجدار . ينقل نظراته — بارتياح ونشوة — بين النقطة البيضاء الثابتة في كبد السماء ووجه الصغيرة المشع !

بغداد